



حين خرج الشاب الدمشقي زكريا من منزله في صباح يوم ربيعي مشمس متوجهًا إلى عمله في الورشة، لم يكن ينوي المشاركة في مظاهرة ولا في اعتصام، فهو شاب "يمشي الحيط الحيط" وليس له في الثورة ولا في "الفيسبوك" شروى نقير.. هو ابن عائلة دمشقية عريقة، والده تاجر معروف بالتقى والاستقامة وحسن المعاملة، طول عمره لم يؤذ أحداً، والدته أيضاً ابنة عائلة محافظة ومحشمة.. هو الصبي الوحيد لوالديه وقد زوجاه قبل سنة ونصف يشابة مثلهم مستورة ومهذبة..

في الطريق إلى عمله كان زكريا يفكر في مستقبل طفله الذي ولد حديثاً وفيما تخيله الأيام المقبلة للبلد وله ولعائله الصغيرة. هو لا يشاهد سوى الأقنية التلفزيونية السورية ويبعد عن تلك "المغرضة" خاصة الأقنية التي تريد أن تناول من وحدة سوريا ومن قيادة رئيسها المفدى" .. هو لا يهتم بالسياسة ولكنها يثق بحكمة رئيسه الشاب "الدكتور" الذي درس في الغرب وعاد ليتسلم الأمانة من أبيه الرئيس الخالد والحكيم حافظ الأسد.. والده قال له عدة مرات: "ليس لنا في السياسة، ولا في المشاكل، من طول عمرها عائلة الأسد تحكم هذا البلد بدرية واقتدار وهذا الأمر لن يغيره بضعة شبان لا يفهون من أمرهم شيئاً" ، زكريا ابن الستة وعشرين ربيعاً والمطيع لوالديه" نفذ حرفيًا ما طلبه منه أبوه "العارف بخفايا الأمور" ، فصار يتجنب المساجد التي "تخرج منها المشاكل" وكل يوم جمعة، يذهب مع العائلة إلى المزرعة تفادياً لمكامن الفتنة.

صحيح أن قنوات الدنيا ومثيلاتها تؤكد أنها "أزمة وخلقت" وصحيح أن سوريا الأسد منتصرة دوماً على أعدائها الكثر، ومع أن "ما في شيء الناس في السيارات وكل شيء عال العال"؛ لكنه والعائلة بأكملها تتصرف على مبدأ "الباب الذي يجيئك من الريح سد وستريح" .. في صباح هذا اليوم المشمس تجنب زكريا السير في أزقة لا يعرفها أو تحية أشخاص لا يثق بهم وحين فتح باب الورشة وهو يبسم، كانت شمس دمشق الريبيعة تلتف وجهاً بحنان، قال في نفسه: "إن كانت الجنة على الأرض، فما أشبه هذا اليوم بها" .

لم يعرف زكريا أن الجنة الحقيقة ربما كانت بانتظاره بعد لحظات.. في هذه الأثناء كان الشاب على يستان ورديته على سطح بناية تطل على شوارع دمشق التي كانت قد بدأت تتعجب بالحياة ذلك الصباح، على شاب متطلع في قوى الأمن وهو مؤمن بأن لا خلاص لسوريا من دون آل الأسد.. بفضل هذه العائلة الأسدية خرج على من قربته الجبلية الفقيرة وأصبح عنصر أمن مهاب الجانب "يحل ويربط" .. راتبه المحترم سمح له بالزواج من ابنة عمه التي كان مولعاً بها منذ الصغر، استقر الإثنان في منزل نظيف بأحد الأحياء التي وفّرها الأسد للعاملين في خدمة "الدولة" وحين ولد طفلهما الأول، خرج على إلى شرفة منزله وجال بنظره في الحي الذي يقطنه هو وزملاؤه العاملون لدى آل الأسد والمسمى "مساكن الحرس" .. حينها قال

لنفسه: "ما أُشِّبِهُ هَذَا الْيَوْمُ بِالْجَنَّةِ.." لكن سعادة على ما لبث أن عكرها بضعة صبيان خربشوا على جدران منسية في مدينة بالكاد يعرفها بالاسم هي "درعا"، هؤلاء "الزعران" الصغار كانت لديهم الجرأة لانتقاد الرئيس القائد الخالد والمفدى.. بعدها بأيام انقلب حياة على رأساً على عقب، لم يعد يشعر تدريجياً بالأمان خارج حيّه، والناس الذين كانوا يهابونه ويتجنبون إغضابه صاروا يكرهونه ولم يعد في مقدوره أن يسبر دون أن يتلفت وراءه خشية من "المندسين"، فوق ذلك، لم يعد في مقدوره أن "يفرّكها" بعد الظهر ليعمل على تاكسي ابن خاله آصف.. بالعكس، صار دوامه غير محدود، لا جازات ولا راحة حتى يوم الجمعة، الذي صار أكثر أيام الأسبوع "عملًا.." زوجته لم تعد تحتمل غيابه الطويل عن المنزل، وكان الأقصى عليها أنها أضحت محرومة من "الكزدة" في شوارع دمشق وأسواقها.. حياتهم لم تعد كالسابق، وانتهت زوجته إلى اقتراح أن تعود هي والطفل للضياعة "حيث سيكونون في أمان" على أن يلحق هو بهم حين يحصل على جازة.. أي جازة؟ وكل يوم جمعة أسوأ من الذي قبله، أصدقاؤه يتلقون الواحد تلو الآخر، حتى بعض زملائه صاروا يتساءلون عن مغزى القتل بالجملة ودوماً لنفس الفئات. على لم يسمح لنفسه بالتردد ولو لحظة، فالنقيب حسن قد كلفه بأعقد المهام وأنطاط به أثيل وظيفه: أصبح على قناصاً ويوماً بعد يوم تزداد مهارته في اصطياد المواطنين الضالين والمندسين، أعداء الأسد والأمة والذين أصبحوا أعداء الشخصيين.

في صباح هذا اليوم المشمس، تذكر على زوجته الغائبة وطفله الحبيب.. يحز في نفسه أن يبقى بعيداً عنهما وأن تنقلب حياته جحيناً بسبب هؤلاء "المندسين" الذين يراهم كل يوم وبوضوح في الطرف البعيد من منظار قناصته. كان قد اعتاد على رؤية زكريا كل يوم وهو يفتح الورشة وهو مبتسماً، بالنسبة لعلى كانت تلك ابتسامة زائدة في هذا الصباح.. سأله نفسه: لماذا لا ينتقم من هؤلاء الذين يخرجون كل جمعة لينغصوا عيشه ويحرموه من كل المزايا التي اعتاد عليها؟ حتى لو لم يكن زكريا يخرج يوم الجمعة فسيأتي يوم يخرج فيه كالآخرين؟ ثم ما الفرق إن أصطاده اليوم أو في يوم الجمعة؟ كلهم مندسون وكلهم خونة.. استجتمع على كل مراتبه وحده ونظر في المنظار، لم يصدق حسن طالعه، فالمندس زكريا في زاوية ممتازة. أطلق القناص الماهر رصاصته، ثم عاد ليكمل كأس المته قبل أن يبرد.

حين اتصل المشفى بأهل زكريا أخبرهم أن ابنهم "أصيب بنوبة قلبية مفاجئة وأنه في قسم الإسعاف.." وصل والده منعوراً طالباً معرفة "كيف يصاب شاب في مقتبل العمر، لا يدخن ولا يعاور الخمر، بجلطة؟"، أجابه الطبيب المناوب بلا مبالاة: (قضاء وقدن). أمام صرخ الأب وبكاء الأم التي لحقت به، وطلبهم رؤية ابنهم للمرة الأخيرة، اضطررت دارة المشفى لإخراج الجثمان من البراد.. صعق الأب المكلوم حين رأى بقعة كبيرة من الدم على صدر ابنه الفقيد وصرخ في وجه الطبيب الذي بدا عليه بعض الإحراج: "جلطة؟! أي جلطة؟! هذه رصاصة في القلب"، الطبيب كان لديه تفسير طبي لهذه المفارقة: "الرصاصة ليست هي سبب الوفاة، بل الأزمة القلبية، الناجمة عن الرصاصة، هي سبب الوفاة.." الأب المفجوع والذي لم يدرس لا في كلية الطب ولا في غيرها من جامعات البعث أوضح للطبيب الذي نسي قسم أبو قرات أن هذا التفسير غير منطقي وأن هناك من قتل ابنه وتجب محاسبته، الطبيب أوضح بطريقة لا تقبل المناقشة أن "ليس لديه وقت ليضيّعه في هكذا تفاصيل، ومن لم يعجبه ذلك فليبلط البحر". باختصار ما أن توقع العائلة على شهادة الوفاة بجلطة أو يدفن الفقيد في مقبرة جماعية.. الطبيب عاد بعدها إلى مكتبه، ليكمل كأس المته قبل أن يبرد.

أخيراً، دفن زكريا الذي لم يكمل ستة وعشرين ربيعاً والذي استشهد صبيحة يوم ربيعي مشمس في دمشق "جلطة" قناص، ذهب ضحية جائحة من التوبات القلبية (والتي يدعوها العوام بالجلطة) والتي تجتاح مدن سوريا الكبرى منذ بضعة أشهر.. لهذه الجلطة الدمشقية والحلبية خصائص لا تتوافق في غيرها من الأزمات القلبية ولا في غير بلاد البعث الأسدية.. أولها: أن ضحاياها هم من الذكور حسراً، ومن بين من تراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين، ضحاياها هم من الفقراء وأبناء الطبقات المتوسطة القاطنين في مراكز المدن والضواحي القريبة، وهو ما يميزها عن "الجلطة الدولارية" التي تصيب

الأثرياء والمرتبطة بتذبذب سعر العملة الخضراء.. المار في شوارع دمشق وحلب يشاهد الكثير من أوراق النعوة الخاصة بشبان كانوا ضحية "الأعمال إرهابية" وآخرين سقطوا ضحايا "حادث أليم"، أما قصب السبق فيعود لضحايا الذبح القلبية والتي تشهد ارتفاعاً غير مسبوق خاصة بين فئات الشباب.. مع ذلك هناك عامل مشترك بين كل هذه الوفيات، سواء تلك الناتجة عن حادث أو عن ذبح قلبية وهو رصاص قناصة الأسد!

بالتعريف إذاً، فالجلطة الأسدية هي نوبة قلبية مفاجئة تصيب شاباً "تصادف" أن كان ضحية لرصاص قناص من زبانية الأسد، هكذا يكون سبب الوفاة بالمفهوم الشرعي ليس الرصاصية في القلب ولكن الأزمة القلبية الناتجة عن تلقي الرصاص!!!

ما الغريب في ذلك وقد عودنا نظام الشبيحة على منطقه الخاص الذي لا يخضع لا لقوانين السياسة ولا الفيزياء ولا حتى العلم والمنطق الموضوعي؟

أليس النظام ممانعاً وهو يتسامح مع الاحتلال؟ أليس مقاوماً وهو لم يطلق حتى بودرة عبر خطوط "فك الاشتباك" وأي اشتباك؟

أليس معادياً للصهيونية وهو حليفها الموضوعي والمخلص في مواجهة حرية شعبه والقضية الفلسطينية؟ فوق ذلك، أليس النظام عروبياً للنخاع حتى بعدما طردته الجامعة من عضويتها ولم يبق له من الأصدقاء العرب سوى من يخجل العرب من انتقامهم لهم؟

أليس نظاماً "علمانياً" وهو المخترق حتى العظم بأبشع أنواع الطائفية البغيضة؟

أليس النظام "وحدياً" وهم من يعمل على قدم وساق في اتجاه تقسيم سوريا الموحدة بغرض الاحتفاظ بقطعة منها له ولطائفته؟

النظام الأسد "العلماني" ذاته لم ير عيناً في ممارسة شعائر "كربلائية" في وسط الجامع الأموي بدمشق تحت حراب جند الأسد.. كيف تستغرب "الجلطة الأسدية" والنظام الأسد "الاشتراكي" خلق في سوريا تفاوتاً طبيقياً لا مثيل له في أكثر الدول الليبرالية توحشاً؟

ألم يلغ نظام الشبيحة قانون الطوارئ ثم يوغل في القتل بما يجعلنا نترجم على حالة الطوارئ؟ وبعد كل الدم الذي سال، يجد النظام ورأسه أن الوضع في سوريا مستقر لدرجة تسمح بإجراء "إصلاحات" بل وبانتخاب مجلس شعب جديد من مصطفين جدد، هذا إن لم يصب هؤلاء أنفسهم بجلطة أسدية (أو دولارية) قبل انتخابهم من قبل شعب "بالله فاضي ومرتاح" لأن "الأزمة خلصت" ولم يبق سوى التصويت لمنافقي المجلس ودفن ضحايا الأزمات القلبية "الأسدية". وفق هذا المنطق، لا تحتاج سوريا إلى (طبيب عيون) و(مراقبين ما شافوش حاجة) لمعاينة الوضع فيها، بل تحتاج إلى طبيب قلب وخبراء تشيرج قادرين على تشخيص سواد قلب النظام ومدى تفسخ الدولة الأسدية..

في سوريا الأسد وحدها للموت وجوه ثلاثة، فالموطن يموت كإنسان حين تستهان كرامته وتنتهك حريته وأعراضه على يد أبشع نظام قاتل شهدته البلاد منذ غزو التتار.

الموطن يموت مرة ثانية برصاص زبانية الأسد.

وأخيراً يموت مرة ثالثة حين يضطر أهله للكذب كي يدفنوه.

في مملكة الصمت التي أصبحت مقبرة للأبراء والشرفاء كل شيء أصبح أسدياً حتى الجلطة.